الشيخ محمود أبو العيون

كنت أقرأ مقالاته الاجتماعية فى أمهات الصحف، وأرَى قيامه بالمناداة بالإصلاح الاجتماعى، ساعيًا إلى الجهات المسئولة، وكأنّه وحدهُ جماعةٌ ذاتُ أعضاء ولجان، كنتُ أرى ذلك فأتمنى أن أحظى بلقائه على شوق، ثم جئتُ إلى القاهرة طالبًا بكلية اللغة العربيّة، فتوثقتْ صلتى بالأستاذ الكبير أحمد شفيع السيد أستاذ الأدب بالكلية، ومن حديثه علمتُ أنه صديق حميم للشيخ أبى العيون، إذ كَانَ من خُلصائه فى معهد الزقازيق الدينى، ثم انتقلا معًا إلى القاهرة فزادتِ الرابطة الأخوية توثّقا واستمساكًا، فقلت له: إنّى أريد أن أسعد بزيارته معك، فقال: إن عليه الدور فى زيارتى، وحين أُطالبه وأحدد الميعاد سأدعوك.

وحانَ اللّقاء، فوجدتُ الأستاذ أبا العيون سهلاً وديعًا، يسألُ عن أبناء الأستاذ واحدًا واحدًا، ويُقبِّلُ الطفل الصغير، ثم لايطلب غير الشاى بدون سكر، وهو يسترسلُ فى حديث عن مشكلات الأزهر، إذ كان حينئذٍ سكرتيرًا عاما له، وله رأيُه المستقل الذى يلقَى معارضاتٍ جمّة، فيضيقُ بهاحينًا، ثم يتساهل، وقد جاءَ ذكر الحج إلى بيت الله الحرام إذ كُنّا فى موعده بشهر ذى الحجة، فقال الشيخ: كم صَمَّمْتُ على الحج، وأخذتُ أدّخرُمن راتبى الشهرى ما يتجمع شيئًا فشيئًا لأستطيع الرحلة، ثم تأزفُ مناسبة شاقّة فيضيع المال المدَّخر فى الضروريات، فصبرًا صبرًا، إذ لاحج لغير القادر.

وحين انتهت زيارة الأستاذ وخرجَ مُوَدَّعًا بالحفاوة والإجلال، قلتُ للأستاذ أحمد شفيع: كنت أظن الأستاذ أبا العيون يكسبُ فوق راتبه مما ينشُر فى الأهرام

وصحف دار الهلال، ومختلف المجلاّت الذائعة، وها هوذا يدّخر من راتبه، فقال الأستاذ أحمد شفيع: إن الرجل مجاهدٌ مصلح، يسعى إلى نشر دعوته الإصلاحية، ومثُل هذا الداعية لاينافِق ولا يداهن، وقد يأتى بما يخالف منحى الجريدة، ولكنها تنشر مقالاته استجابةً لحبّ الجمهور، وفى هذه الحالة لايكسب شيئًا، وهو سعيدٌ مغتبط، لأن الأجر الأخروى مضمون غير ضائع.

فى مصر الفتاة:

قرأتُ دعوةً عن محاضرة تدور حول الزواج وحقوق المرأة للأستاذ أحمد حسين، فسعيتُ إلى استماعها، وأنصتُّ إلى معلوماتٍ غزيرة قالها الأستاذ أحمد حسين فى فصاحةٍ مؤثرة، لأنّ له مؤلَّفًا فى هذا المجال كتبه تحت عنوان (الزواج والمرأة)، وبعد انتهاءِ المحاضرة نهض أحد السامعين مُعقّبًا، فقال: إنّ الأستاذ أبا العيون هاجمَ كتابَ (الزواج والمرأة) وهو لايدركُ مرمى المؤلف، ولا يصلُ إلى مستواه! وما كادَ المتكلم ينطقُ بذلك، حتّى قامَ الأستاذ أحمد حسين وقال معترضًا: ماذا تقول أيها الأستاذ: إننى تتلمذت على مقالات الشيخ أبى العيون، وأعدّهُ من زعماء الإصلاح الاجتماعى المستنيرين، وإذا كانَ فضيلته قد خالفَ فى أمورٍ لا يراها صوابًا فى رأيه، فهو عالمٌ من علماء الإسلام الكبار، وهو أستاذٌ وأنا تلميذ!

كانت لهجة الأستاذ أحمد حسين تدل على نُبْلٍ وفضل، فحمدنا له جميعاً، إنصافه وسماحته، واضطر المعّقب إلى أن يقطع حديثه منسحبًا، ولكنّى - وأكثر السامعين - لم ندرِ شيئًا عن اعتراضات أبى العيون ولا نعرف أقالَها فى ندوةٍ ليلية، أو نشرَ عن الكتاب مقالاً فى صحيفة لم نطالعها، فظلّ فكرى مشتغلا بذلك، لأنّ حديث الأستاذ أحمد حسين فى محاضرته لم يخرجْ عن المنحى الإسلامى، فهو إذن يلتقى مع الشيخ فى طريق واحد! ففى أى نقطة تحدد الخلاف؟

وكان من عادتى أن أفضى إلى الأستاذ أحمد شفيع بما يجذبُ انتباهى من آراء أسمعها فى الندوات الأدبيّة، التى لايسمح وقته بحضورها، فذهبتُ لأحدّثه بما كان

فى ندوة مصر الفتاة، ثم أعلنتُ رغبتى فى لقاء الشيخ ليفضى إلينا ببعض مايراه، فابتسَم الأستاذ أحمد شفيع، وقال: وجبت زيارته، وسأحدد الموعد معَه، لأن الدور عليه!

وفى منزل الأستاذ دار الحديث فى شتّى اتجاهات، ورأيت أن أسأله عن اعتراضاته على مُؤَلَّف الأستاذ أحمد حسين، فقال فى حزم، الكتابُ جيّد، جيد، وهو من خير ما قرأتُ فى موضوعه، وقد نشرتِ عنه مقالا أؤيدهُ فى أكثر اتجاهاته، وأعارضه فى مسألة أو مسألتيْن.

قلت: ماهما؟ فقال الشيخ: أتذكّر يا بنى أن الأستاذ تشدّد بعض الشىء فى مسألةِ تعدد الزوجات حتى كاد يجعلُ التعدد من المحرمات، وأقولُ كاد لأنّه أباحه حيثَ يجب أن يكون، ولكن القارئ المتعجل قد يفهم من الأستاذ مالايُريد، فأردتُ أن أوضّح أمرَ الإباحة بجلاء، ليكونَ رأى الأسلام واضحًا لا لبس فيه، كما أنّه أوجب أن يكون الطلاق أمام القاضى، بحيثُ لاينعقد بدون محكمةٍ ترى وجه الصواب فى الفراق، وذلك سلبٌ لحق أكّده الشارع لأمور اجتماعية لامَناصَ من مراعاتها، إذ ليسَ كل ما يقع بين الزوجين مما يجب أن يُذاع فى محكمةٍ ذات قاض ومحامين وشهود! والحقّ أحقّ أن يُرَى.

ثم قال الأستاذ: وإنى بعد هاتيْن المسألتين أرحّب بكتاب الأستاذ، وأدعو إلى ذيوعه وانتشاره، لأن بعض القراء لايرحبون كثيراً بآراء (المشايخ) فإذا قامَ الأستاذ أحمد حسين بإذاعةِ ما يقول (المشايخ) وتأكيده، فهذا مغنم كبير.

لقاء طريف:

كان بعض طلاب الماجستير بكلية الآداب قد تقدّم برسالة إلى قسم اللّغة العربية بالكلية تحت عنوان (الفنّ القصصى فى القرآن الكريم) وقد أخطأَه الصواب فيما انتحاه، حيْث ذهب إلى أنّ القصص فى القرآن عملٌ فنى خاضعٌ لما يخضع له الفّن من خَلْق وابتكار، من غير التزامِ بصدق التاريخ، ومحمد ﷺ فنّانٌ بهذا المعنى، ثم ذهبَ بناءً على هذا الرأى إلى أنّ الإجابة التى يوجهّها القرآن ردا على

أسئلة المشركين لَيْسَتْ واقعيّةً ولا تاريخية، وإنّ استماع الجن للأخبار السماوية مما ينحوُ منحى القصة كذلك قصّة موسى وصاحبه فى سورة الكهف لم تعتمدْ على أصل واقع من الحياة، وأمثال هذه الاستنتاجات الخاطئة المخطئة تثيرُ النفوس، فرفضَ الأستاذان الفاحصان الرسالة، ودافَع عَنها الأستاذ المشرف فى الصحف اليومية بما تركَ صخبًا و ضجيجًا، وكنتُ ذات ضحى أمام إدارة الأزهر، فوجدتُ لفيفًا من طلاب الكليات الأزهرية فيما يشبه مظاهرةً، يهمّون بدخول الإدارة، فسألتُ فقيل إنهم يطالبون شيخ الأزهر بالاحتجاج على الرسالة التى أحدثتْ لغطًا فى المجتمع المصرى، فتوجهتُ مع الزملاء، لأرى ماسيكون، فلم نجد شيخ الأزهر بمكتبه، حيثُ خرج مع الوكيل والمدير، إلى اجتماعٍ طارئ، ولم يبق إلا سكرتير الأزهر فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون، فتوجه إليه الطلاب ثائرين، وأحسّ الشيخ بالتجمع قبل أن يدْخلوا عليه مكتبه، فانتظرهُم على الباب، وقالَ فى بشاشة: مكتبى صغير لايتحمّل أكثر من عشرة طلاب فانتخبوا من بيْنكم مجموعةً تتحدّث عَمَّا تريدون، وقد لمحنى الأستاذ بينهم، فأشارَ إلىَّ، فتقدمتُ إلى مكتبه مع الزملاء الآخرين، وتهيأ الشيخ للحديث فقال:

أعرفُ غيرتكم على القرآن أوّلا، وعلى الحقائق العلمية ثانيًا، وهذا مصدرُ اعتزازى بكم، وترحيبى كلَّ الترحيب بهذا الاجتماع العلمى المفيد، وأحبّ أن أخبركم أنى بحثتُ الموضوع من كافة وجوهه، .إذ أرسلت إلى صديقى الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب أستوضحُه الأمر، واثقًا من دينه وعدله وتحرزه من شبهات الإلحاد، وأعلنُ إليه أنّ الأزهر ينتظر نتيجةَ الموضوع، على أحر من الجمر. ثم فتحَ دُرج المكتب، وقرأ لنا صورةً من الخطاب، منتقلا إلى ردّ الدكتور عزام على فضيلتهِ، فى خطاب آخر يقولُ فيه الدكتور العميد ما ملخصه: إنّ طالبًا مُخطئاً تقدّم برسالةٍ ذات شططٍ إلى الجامعة، فأدرك الدكتور ان الفاحصان ما بالرسالة من شطط جاهل، ورَفَضا قبولها، ومِن هنا أصبحَ الطالب راسبًا فى مادته! والجامعةُ قد لزمت طريقَ الصواب حين تركتِ الجمهور أمامَ

تقريرين علميين يرفضان الرسالة بأسانيد لاتقبل الجدل، فهل فعلت الجامعة ما يُلام حتى تُواجه بالنقد، وتعد مسئولة عن جهل طالب أوقعه تسرّعه فى الشطط، فسقط فى الامتحان؟!

سمعنا ردّ الدكتور عزام، فأدركنا أن الأمور قد وُضعت فى نصابها العادل، وأنّ الثورة على كلية الآداب ليستْ فى موضعها، وقد انتهزَ الفرصة شيخنا أبو العيون فقال: أنتم نُبهاء، وفيكم من يستطيع البحث العلمى، فهل أجدُ منكم من يقرأ تقريرى الأستاذيْن الفاحصيْن، وهما يتضمنان بعضَ التخاريف المخطئة ليقومَ بدحضها فى مقال نقدىٍّ أنشرُه له بمجلة الأزهر! هنا يكوُن الاحتجاج العلمى على وجهه الصحيح! لا أن نقتصر على التجمع والهتاف.

ثم قالَ الأستاذ أبو العيون: أذكر لكم طرفة مماثلة وقعت منذ سنوات، فقد أخرج الدكتور زكى مبارك كتابًا زعم فيه أن كتاب (الأم) الذى ألّفه الإمام الشافعى رضى الله عنه، ليس من تأليفه، وإنما هو تأليف تلميذه البويطى، وجاءَ الكتابُ الكبير الضخم منسوبًا للإمام الشافعى على سبيل الخطأ، وقد أبدى الدكتور زكى مبارك من الأدلة ما يقبل النقض، وما شاع كتاب الدكتور، حتّى تجمهر طلاب القسم العالى بالأزهر محتجين، وذهبَ فريقٌ منهم إلى مشيخة الأزهر، وكانَ الأستاذ الكبير الشيخ حسين والى رحمه الله موجودًا ساعتئذ، فاجتمع بالطلاب، وصاح بهم: هيّا لنتناقش. واستمعَ فى اهتمامٍ إلى كل ما قالوه، ثم واجههم بقوله: أنتُم تعرفون أن الدكتور مبارك قد أخطأ! وأريُد من نبهائكم أن يقرءوا الكتاب بعناية، وعلى من يقدر على الرد أن يأتينى بنقد يعصف بالكتاب، وسأنشره عاجلاً فى الصحف اليومية، هذا هوُ السبيل، يا أبنائىَ! ثم قال الشيخ أبو العيون: وقد انتظر الشيخ حسين والى فلم يجدْ ردا قُدِّم إليه، فقام هو بكتابة تحقيق علمى رائع نسف ما اتجه إليه الدكتور مبارك، وجعل المسألة فى خبر كان! استمعنا للرجل الكبير، وانصرفنا حائرين. .

حادث مشهود:

فى سنة ١٩٤٧ حصل تصادم حَادّ بين طلبة معهد القاهرة الدينى ورجال الشرطة، وأتى النبأُ إلى الشيخ أبى العيون، وكان بمكتبه بإدارة الأزهر، حيثُ

يعمل سكرتيراً عاما للجامع الأزهر، فأسرعَ إلى تهدئة الموقف والتحم بالبوليس؛ ليزجرَه عن مُلاحقةِ الطلاب، ولكنّ بعض الضبّاط لم يعرفوا مكانة الشيخ، فهجموا عليه، وارتمَتْ عمامتُه على الأرض، وسقط لهول ماجُوبهَ به، ثمَّ حضر وزير الداخلية، فعلم بما كان فأمرَ بانسحاب الشرطة، ورجَع الشيخ إلى بيته، وظلّ معتكفًا، وأعلَن أنّه لن يذهب إلى مكتبه حتّى يُحققَ مع المعتدين، ويعتذرَ رئيس الوزارء، وأضربَ الطلاب عن الحضور، وتحدثت الصحف بما لحق الرجل الكبير من إهانة ليس من أهلها، ورأى النقراشي باشا ـ وكانَ رئيس الوزراء ـ أن يترضّى الشيخ بنفسه، فسارعَ إلى الاعتذار، ورجَع الشيخ إلى مكتبه موفور الكرامة.

وقد ذهب نفر من الطلاب إلى تحيته بعد عودته، وكنتُ من بينهم، فسمعتُ الشيخ يقول: لقد تعرضتُ فى ثورة سنة ١٩١٩ إلى اعتداء البوليس، وقد وُوجِهتُ بمن يلطموننى من الخلف حتى سقط العَلَم من يدى، وأنا فى طليعة المتظاهرين، فجابهتُ المعتدى بأفظع مايُقال، ولم أستاْ مِنْ ذلك، كما استأْتُ هذه المرة، لأنّ المعتدى فى سنة ١٩١٩ كان إنجليزيا مستعمراً، أناصبُه العداء، ويحمل لى البغضاء، أما المعتدِى اليوم فمصرى من أبنائى، وأنا فى سن أبيه، وقد لمح العمامة على رأسى فدلّت على أنى من شيوخ الأزهر، فكيف أُقابل منه بمالا أنتظر!! وما جئت إلا لأهدئ الموقف، وأصرف الطلاب، فكانَ حديث الشيخ أليمَ الوقْع على نفوسنا، إذ لايجوز لمثله أن يُقابَل بالاعتداء ممّن يعتبرهم أبناءه، ويرى نفسه أباهم الحنون.

فى مجلة الأزهر:

حدثنى صديقى الأستاذ محمود الشرقاوى فقال: حينَ اختير الأستاذ مصطفى عبد الرازق شيخًا للجامع الأزهر، رأى أن مجلة الأزهر لا تُعبّر عن الثقافة العلمية التى يدرّسها أساتذة الكليات، بحيث لايكاد يوجد فارقٌ بينها وبين المجلات الإسلامية التى لاتنتمى إلى هيئة علمية كبيرة، فعقد عدة اجتماعات لتطوير المجلّة، ورأى أن يضم إلى الإشراف عليها الأستاذ محمود أبو العيون، زميلا لرئيس

تحريرها المفكر الإسلامى الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى! ثم اقترحَ أن يكتب الأستاذ أبو العيون عدةَ خطابات لمن يتّسم فيهم القدرة على كتابة البحوث العلمية، لُيشاركوا بنتاجهم فى تحرير المجلة، كل وَفْق تخصصه، ولكنَّ الأستاذ أبا العيون رأى أن تُوجه الخطابات باسم الأستاذ محمد فريد وجدى، لأنه مفكرٌ إسلامىٌّ كبير، وبجبُ أنْ يُحفظ له حقّه، باعتباره رئيسًا للتحرير، فقالَ الشيخ مصطفى: أنا أقدر وجهة نظر أبى العيون، ولكنْ يمنَع منها أنّ الأستاذ فريد لايعرفُ من أساتذة الكليات غير القليل، وأبُو العيون أزهرى عريق يعرف كرام الكاتبين، فقال أبو العيون، سأكتب أسماء من أراهم ذوِى مقدرةٍ كتابيّة، وأقدّمها للأستاذ وجدى، ليكتب هو الرسائل بتوقيعه، ولم يكنِ الأستاذ وجدى حاضراً عند النقاش، فشكر الأستاذ الأكبر وجهة نظر أبى العيون، وقال له: لايعرف قدر الفضلاء إلا فاضل! وفى هذا الموقف على بساطته ماينبئ عن روح عالية، ونبل أصيل..

***

الشاعر الفكه إبراهيم الدباغ

كنا فى ندوة الأستاذ الأديب السيد حسن القاياتى فدار الحديث عن شعراء العصر، فذكر القاياتى أن زميلَه بالأزهر الشاعر النديم إبراهيم الدباغ يعتزلُ الناس منذ ثلاثة أشهر فى مثوى (دار السلام) بالحسين، وقد اعتكفَ فى حجرته لايخرج منها إلاَّ للضرورة القصوى، ويأتيه الغذاء المتواضع مرّة واحدة فى اليوم، وأنّه حاولَ أن يثنيه عن عزلته فلم يفلح، ثم تطلّع إلينا القاياتى متسائلا: أفيكُم من يذهب إليه متودّدًا؟ ويؤانسه بذكر ما يعرف من مواقفه الأدبّية، وقصائده الشعرية، ومقالاته السياسية، فإنه يستطيع بذلك أن يثبت له أنه مذكور غير منسى، وأن ناشئة الأدب يذكرونه اليوم كما كان يذكره زملاؤه بالأمس؟

قلت للسيد حسن القاياتى: أنا لا أعرف عن الرجل إلا ما قرأته فى ديوان الطليعة الذى جمع ألوانًا من أدبه، وقد قدّمَه الشاعر الكبير خليل مطران فذكر من تاريخ حياته، نشأته فى يافا بفلسطين، وانتسابه للأزهر، وتلمذته للصفوة من رجاله، من أمثال محمد عبده، وحسن الطويل، ثم ما قام به من إصدار بعض الصحف والمجلات، وقال زميلى الأستاذ محمد عبد الحليم أبو زيد: إنه يعرف ما أعرف، فقال القاياتى: عليكما بزيارته غدًا إن شاء اللّه، وسأحدثه فى التليفون بأنكما تشفّعتما بى فى تمهيد ذلك اللّقاء، وسيستريح للقائكما إن شاء اللّه.

كان الوقت مساءً، فانطلقتُ على عجل لأتصفح (الطليعة) محاولاً حفظ ما يروق من أبياتها، وقضيت ليلة فى قراءة الديوان، فعرفتُ عن الدباغ ما ينتحيه من أسلوب فى النظم، وما يولع به من أغراض شعرية كانت ذائعة فى عصره،

واخترت أبياتًا أعجبتنى فى السياسة والاجتماع والرثاء، ثم حان الموعد، فوجدت الأستاذ محمد عبد الحليم أبو زيد ينتظرنى بمسجد الحسين، فقلت: هيّا.

فى دار السلام:

لم نكد نسأل صاحب اللوكاندة عن الأستاذ الدباغ، حتى قال لنا، أنتما فلان وفلان، إنه فى انتظار كما بعد أن رفض مقابلة الزائرين عدة أسابيع، وقد حدثه الأستاذ القاياتى عنكما، ثم وجهنا إلى حجرته الصغيرة المنعزلة فى نطاق محدود.

كان الشاعر الضرير شاحب الوجه، تظهر دلائل المرض فى وجهه، ويلوح الانفعال الكظيم فى سحنته، وقد سارعت فقلت له: إنى منذ عام أحاول التعرّف به بعد أن حفظت أكثر ديوان الطليعة، وقد رجوت الأستاذ القاياتى عدة مرات حتى استجاب، وقال زميلى مثلما ما قلت، فابتسم الشاعر، وقال فى شبه مرارة: جهدكما ضائع، فلن تظفرا لدىَّ بشىء.

قلت: إنى كنت أستغرب عزلة أبى العلاء فى منزله، وأعدّها أمرًا صعبًا، ولكنّ أبا العلاء فى عزلته هذه كان يقابل تلاميذه، ويؤلّف كتبه، ويراسل أصدقاءه، أمّا الأستاذ القاياتى فقد حدثنا أنك لم تقابل أحدًا من عدة شهور، مع كثرة الزائرين والمتوددين...

فضحك الرجل، وقال: كثرة الزائرين؟ أنت واهم، لا يزورنى إلا نفرٌ من أهل الوفاء، وفى طليعتهم الشاعر النّبيل الأستاذ خليل مطران، والدكتور الوفى زكى مبارك، والقصاص محمود تيمور، والشاعران القاياتى والأسمر، وكان الهراوى رحمه الله لا ينسى زياراتى المتكررة، وفد سبقنى إلى رحمة اللّه، فعزّ على فراقه كثيراً.. ثم سألنى: ولماذا رغبتما فى زيارتى؟

قلت: إنك فى الطليعة من أصحاب الأقلام المكافحة، كتبت فى الوطنيّة مع على يوسف، وعبد العزيز جاويش، وأمين الرافعى، وأصدرتَ عدّة جرائد، وصاحبتَ عبد الله النديم وتأثرت به، فقال الرجل: أَبَقِىَ فى الناس من يعرف هذا؟ فقال الأستاذ عبد الحليم: وأكثر من هذا.

فقلَّب الرجل كفيه، وقال: ذهب هذا التاريخ جميعه، لقد أصبحتُ أبعث القصيدة الطويلة إلى جريدة الأهرام فتنشر منها عدة أبيات! حتّى جريدة البلاغ وصاحبها ذو فضل على، وذو مروءه نادرة، يختصر ما أبعث إليه! فكيف يحدث هذا؟

قلت، لعلّك تكتب فى السياسة بما لا تُوافق عليه الجريدة، فقال: أحيانًا يحدث هذا، وأنا أقدّر ظروف رئيس التحرير بعقلى، ولكنى أغضب عليه بشعورى.

ثم قال: أنتم لا تعرفون شيئًا عن مروءة عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ، إنّه لايكافئ بالمال غير المحررّين الدائمين بالجريدة، أما الشعراء والكُتّاب الذين يراسلونها، فلا يأخذون قليلا أو كثيرًا باستثنائى، فحين أرسل إليه شيئًا أجدُ مكافأةً تصل إلىّ مع خطاب رقيق، وقد حدثنى الدكتور زكى مبارك بأنه شكر الرجل نيابة عنى، فقال: هذا واجب! وحين أصدرت ديوان الطليعة، أخذ خمسين نسخة، وفرّقها على المحررين بالبلاغ، والموظفين بالمطبعة والإدارة، وأرسل الثمن إلىّ مضاعفًا، وقال: هذا حقّك! ثم قال الرجل وإذا كنتُ أشيد بصاحب البلاغ فإنى أعتب على سواه.

قال الأستاذ عبد الحليم: مثل مَن؟ ففوجئنا بردّ الدباغ مُعْلِنًا اسم الزعيم سعد زغلول رحمه الله!.

فتساءلْنا: وكيف؟ قال لقد نظمتُ قصائد كثيرةً فى تأييد سياسة الزعيم الخالد، ونشرتُها بالبلاغ وغير البلاغ، فما جاءنى منه خطابٌ يدلّ على اهتمامه بما نشرت، مع أنّه أرسل للشاعر عبد المحسن الكاظمى خطابًا يثنى فيه على مدائحه له، وقد نشر الكاظمى خطابَ الرئيس مبتهجًا فخورًا.

سمعتُ كلام الشاعر، فبدالى أن أقولَ له، إنّ الكاظمى قد جمع مدائح سعد فى كتاب خاص، تحت عنوان (المعلقات)، ولعلّه أرسَل الكتاب إليه، فكانَ طبيعياً أن يرد على تحيّةٍ تخصّه، فقال الدباغ: هو ما قلت، والذى جمع قصائد الكاظمى هو الأستاذ خير الدين الزركلى، وقدّم لها، وهى قصائد طويلة ذات نَفَسٍ ممتد!

فعقّبت أقول: إذن للكاظمى ظرف خاص، فلو كانَ قد اكتفى بالنشر فى الصحف ما اتسع وقت سعد للرد عليه، ولا أظنّ شعراء مصر الذين مدحوا سعدًا مثل حافظ وشوقى ـ وهُما مَن هما ـ كانا يتلقيان رسائل من سعد كما بعثَ للكاظمى! ثم إنّ الكاظمى تلميذ الإمام محمد عبده، ولعل صلةً شخصيةً جمعتْ بينه وبين سعد من عهد الإمام!

قال الدباغ: أنا موافق على ماقلت، وقد بدا لى أن أعذر سعدًا.

سيدة الغناء أم كلثوم:

وانتقل الحديث من سعد إلى أم كلثوم، فقال الدباغ إنّ المطربة الكبيرة تسألُ عنه كثيرًا، بحيث لاتمر مناسبةٌ ما حتّى تتصل به فى التليفون، فتهنئه بالعيد تارة، وتذكرُ أنها قرأت مقالةً له اليوم تارة، وهو يعرفُها منذ نشأتها الفنيّة الأولى، فقد كانَ صديقًا لأبيها، وهى تعلم أصحاب الوالد، وتخصّهم بالوفاء والتقدير.

قلت: لقد قرأتُ أبياتًا لك عنها فى ديوان الطليعة.

فتأوّه الشاعر، وقال: وهلْ عرفت مناسبةَ ماقلت؟ لقد كنتُ بعد مرض عينى أغشى بعض حفلات الغناء استجابةً لعاطفة مشبوبة لدىّ، ولكن بقدر محدود بالنسبة إلى ماكان قبل المرض، إذ كنتُ لا أدع احتفالا غنائيا أقدرُ على الذهاب إليه، وكانت صلتى بكبار المطربين مثل الشيخ سلامة حجازى، وسيد درويش مشتهرة، وفى بعض الحفلات عبرتْ بى الآنسة أم كلثوم، فبادرتْ بتحيّتى بالإشارة ظنا منها أنى أقدر على رؤيتها، فلما لمْ تجد الرد، سألتْ من حولها، فعرفتْ ما أصابنى، فاتجهتْ إلىَّ مواسية، وبكتْ فتساقط دمعها على كفّى وأنا أسلّم عليها، فتأثرتُ كثيرًا، وقلت من أبيات:

بكتْ فالتقى دمعى انسجامًا ودمعها ... ولكنها كانت على الدمع أقْدَرَا
فويحكَ ياقلبى أما كنتَ شاهدًا ... سنى الحُسْن أو معنى النسيم الذى سَرَى
أأنت كعينى غافلٌ حين أقبلت ... بربكما رُدّا التحية وانظرا

وبكى الشاعر، فغلبنا التأثّر، ومضتْ مدة كان الصمت فيها أبلغ من الكلام، فأردت أن أقطع هذا السكون الثقيل فقلت: أنا أعرفُ صلتك الوثيقه بالشيخ سلامة حجازى، وقد قلتَ فى رثائه بيتًا نادرًا أحفظه جيدا، فرفع الشاعر رأسه إلى السماء كمن يتطلّع، وقال: بربّك أنشده، قلت هو قولك:

وأَسْكَتَ الموتُ هنا بُلْبُلا لو أنّه غناه لم يُرْدِه!

فقال الأستاذ محمد عبد الحليم: هذا أجمل مايُقال فى رثاء مطرب، فقال الدباغ، كان من عادة المصربين فى مطلع هذا القرن أن يبدءوا الغناء بقولهم: ياليل ياليل! وهكذا كان يفعل الشيخ سلامة حجازى، فرأيت على حبى إياه أن أهاجمه مع من يقولون دائمًا ياليل ياليل، فقلت من أبيات:

سئم الليل منهمو قول ياليل فنادى ما خَطْبُكُم مَنْ ينادى!

قلت: ولكنْ «شوقى» كان يستطيب غناء عبد الحامولى حين يهتف بالليل إذ قال:

يسمع الليل منه فى الفجر ياليل فيصغى مستمهلا فى فراره

فقال الدباغ بيت رائع! الله! الله! كان شوقى ابن فن، فقلت: لقد تبعه الأستاذ على الجارم فقال عن إحدى المطربات:

من كل شادية كأن حنينها همس المنى لليائس الكداح
الليل إنْ نادتْه مال بعطفه فتراه بين المنتشى والصاحى

فقال الدباغ، البيتان جميلان، والجارم شاعر رنان، ولكنّ صلتى به مقطوعة، فأنا كنت صديقًا لحافظ ومحرم والكاشف وولى الدين يكن ومطران والهراوى، ولكن الجارم لم تسمح ظروفى بلقائه. واتصل الحديث شيقا فى مثل هذه الخواطر، وقد لمسَ الدباغ نشاطًا من نفسه، فأخذ الجانب الأكبر والممتع من الحديث، وتحدّثَ عن نشأته فى «يافا» وكيف قرأ سيرة الظاهر بيبرس، وعنترة،

وألف ليله، ثم أطرفنا بأنه اشتغل قبل الالتحاق بالأزهر نجآرًا صغيرًا فى مدينة يافا، ثم ترك النجارة إلى الحدادة، فصار (صبى حداد) وفى بعض المرات طارت شرارات فأحرقت كفيه، فعزم على ترك هذه المهنة، وحدثته نفسه بالنزوح إلى مصر والالتحاق بالأزهر، لأنه يحفظ القرآن، فوافق عمّه، وأمدّه بما يُعينه، ومن يومها صار مصريا كما يقول.

رجع إلى ندوة القاياتى:

لم تكد تمضى ثلاثة أشهر على هذا اللقاء حتى فوجئت بنعى الشاعر المريض، وتذكرت لقائى معه، فَسلّيْتُ نفسى بمقال كتبتُه فى رثائه، ونشرتُه بجريدة مصر الفتاة فى صفحةِ العالم العربى، وقد قرأه ابن عمه الأستاذ مصطفى درويش الدباغ فراسلنى شاكرًا، وامتدتْ رسائلنا غير منقطعة حتى مات رحمه الله، وقد أصْدَرَ مجموعة أدبيّة تجمع نثارًا من خطرات الشاعر مع بعض ما قيل فى رثائه، وكان من بينها مقالى المتواضع عن الشاعر، وذلك فى كتاب تحت عنوان (شَهْدٌ وعَلْقَم).

سهرناَ بعد رحيل الشاعر كعادتنا فى ندوة القاياتى بالسكرية، وطاف الحديث مشرقا ومغربًا، حتى عنّ ذكر الشاعر الفقيد إبراهيم الدباغ، فقلتُ: إن من مآثر السيد عندى أنه أتاح لى فرصة لقائه قبل انتقاله إلى دار البقاء، فقال: أتعدّ هذه مأثرة؟ إنك تذكرنى بالأستاذ مصطفى درويش الدباغ ابن أخ الفقيد، حيث كتب يشكرنى أن شيعتُ الفقيد إلى مثواه مع نفر قليل من أدباء مصر، شاكيًا تقاعس الصفوة من أصحاب الأقلام عن تشييعه، ثم عن تأبينه فى الصحف، ثم نهض السيد فجاء بصورة خطابٍ ردًّ به على الأستاذ مصطفى، وقال فيه ـ على طريقته النثرية فى اصطناع أساليب البلغاء من أمثال الهمذانى وأرباب البديع:

«تشكر لنا، وكيف؟ أن تنقلت أقدامنا فى خُطى معدودة لتشييع سيّد عزيز على الأدب والشرق، فُصِل من الأكباد، وخلّف السهاد، إذنْ فلامشت بنا قدمٌ إلى نبل، ولا برنا فضل!

صديقنا الدباغ، ومَن الأستاذ الدباغ؟ رفيق الصبّا، قريب الهوى، نشأنَا فى

الأزهر معا، شقيقى نفسٍ، وزَميلىْ دَرْس، على حين أقبلَ يُساجلُ بشعره النسمات، ويضاحكُ البسمات، ويغازلُ بعيون قصائده العيون، ويخلقُ الفتون، برَّز فى الأزهر وسِنُّه فى الطليعة، ثم زاحم الفحول «بالطليعة» وطالما جرَى لسان الدباغ بحديث يكاد ينظر فى عطفه، ومغزىً مبرة، يتحلّل من عطفه، أو تنقّلَ من عظةٍ وزهادة، تصدع الأكباد، أو تُعجب الزهاد، فناهيك منه جامعةَ علم وتعلِيم، وريحانة نديم، وهو بعدُ نجىُّ العظماء، صفىُّ العلياء، يجيلُ فى نديِّهم ذكر التاريخ، فيذكره التاريخ، ويتحدّث عن مصر، فيلتفت العصر،» وقد أذن فنقلت صورة من خطابه، وأظنه نُشر فيما بعد بإحدى المجلات.

هذا بعض ما أذكر عن صاحب الطليعة، ولا بد لدارسى الأدب من الوقوفِ على ماترك من آثارٍ تحفظ له حقه فى سجلّ النابغين.

***

الشاعر محمد الأسمر

أقامتْ جمعية الشبان المسلمين بالزقازيق حفلاً تعودتْ إقامته بمناسبة المولد النبوى الشريف، وكان المتأدبون من شعراء المعهد الدينى يقوُمون بإلقاء بعضِ القصائد تشجيعاً وتنويهًا، وفى مناسبةٍ ما، قيلَ لنَا، إن الشعر مقصور هذا العام على ضيوف أعزّة من شعراء القاهرة، فذهبْنا مستمعين لامنشدين، ورأيتُ لأوّل مرة على المنصة الأساتذة محمود غنيم، ومحمد الأسمر، وعلى الجندى، وكلّهم من النابهين المرموقين، وقد قُوبلت قصائدهم بالتصفيق الرنّان، وبعَد انتهاء الحفل تحلّقنا حول الشعراء نُطْرِى قصائدهم، وأفاضَ زملائى فى ترديد عبارات الإعجاب، ولا أدرِى لماذا غلبنى لسانى، فقلتُ موجّهًا الحديث للأستاذ الأسمر: إن قصيدتك العامرة ذائعةٌ مشتهرة، حيث قرأتُها من قبل فى مجلات الرسالة والأزهر والإسلام، كما أنك أنشدتها فى موسم الشعر منذ عشرة أعوام فلماذا لم تأت بالجديد؟

قال الأسمر: عجبًا، أتعرف كلّ هذا عن القصيدة؟ قلتُ وأعرف الكثير عنك، قال: وهل تحفظ من أبياتها، فقلْت، إنى قرأت تعليقًا على قصائد موسم الشعر يقرّر أن قصيدة الأسمر كانتْ فى طليعة القصائد، فسارعتُ إلى قراءتها فوجدتُها من أبدعِ ما قال الشعراء فى مناسبة المولد، وإليك بعض ما أحفظ منها:

فجرٌ أطلّ على الوجود فأطلعا ... شمسيْن، شمس سنا، وشمس هدى مَعَا

ظلّت مطالعُ كلّ شمس لاترى ... من بعدهِ شيئا كمكّة موضعا

يومٌ أغر كفاك منه أنّه ... يومٌ كأنّ الدهر فيه تجمّعا

ويكادُ غابر كل يومٍ قبله ... يُثْنى إليه جيدَهُ متطلّعا
فلو استطاع لكرَّ من أحقابه ... وثْبا على هام السنين ليرجعا
ويكاد مقبل كلّ يوم بعده ... ينسلّ من خلف الزمان ليسرعاً
فلو استطاعَ لجاء قلب أوانه ... وانسابَ يخترق السنين وأتلعا
تتنافسُ الأيام فى الشرف الذى ... ملأ الوجود، فلم يُغادرْ إصبعا

ثم سكت بعد هذه الأبيات، فقالَ الأستاذ على الجندى، لقد سمعنا هذه الدرة مرّات، ولكننّا لم نسأم من معاودتها، لأنّ القصيدة الجيدة، كالأغنية الجيّدة لاتُملّ من التكرار، بل تزداد إمتاعًا، أفتضُجر أنت من سماع أغنية سلوا قلبى لأم كلثوم! فاستدرك الأستاذ الأسمر يقول:

صّدقونى أيها القوم، أن هذه القصيدة النبوية، وقفتْ فى طريقى بالمرصاد، فإذا حانتْ مناسبة المولد الشريف، وتطلّعتُ إلى نظم قصيدة جديدة، أُلْقَىَ فى روعى أنّى لن أجىء بأفضل مما قلت، فاستحيتُ من رسول الله أن أنخفض فى مديحه عن مستواى.

صاح بعض زملائى: الله أكبر، هذا الاعتذارُ يعّد قصيدة جديدة، ثم رأيتُ الأستاذ الأسمر يفسح مكانًا بجانبه ويدعونى، فجلست مزهوا، ليسألنى فى بساطة: وهل قرأتَ لى شيئاً غير هذه القصيدة، فأجبت على الفور: قرأت كلّ ما تنشره شعراً ونثراً، فتطلّع إلى رفاقه متبسمًا، ثم قال لى: والنثر أيضًا؟

فقلت: والنثر أيضًا، ولى سؤال يتعلق بموضوع كتبتَه، فقال الأستاذ غنيم: يظهر أننا لن نفرغ من الأسمر ومنك! فقال الأسمر، قل مالديك:

قلت: ياسيدى إنّ الذى يخيّل إلىّ قدرَ دراستى المحدودة، أنك فى اتجاهك الشعرى تنحو منحى أحمد شوقى، فأنت كما يخيَّل لى تلميذٌ نابهٌ من مدرسته، ولكنى قرأتُ لكَ مقالاً يحمل نقدًا صارخًا لأمير الشعراء، قرأتُه فى صحيفة

السياسة الأسبوعية التى لا أزال أحتفظ بها، وفى هذا المقال تُعلن أن شوقيا يبتكر تارة، وينسج على منوال غيره تارة، وشعرهُ منه الجيد ومنه الردىء، وهذا ليس موضع اختلاف، إنما أختلفُ معك فيما قلته عن معارضاتِ شوقى لأمثال البوصيرى والبحترى وابن زيدون، حيث قلت: إن المعارضة لا تمتّ إلى الشعر بسبب، وأنا أقول: لو كان شاعر مثل شوقى يحبُّ رسول الله صادقًا، وقد قرأ قصيدة البوصيرى فى مديح النبى فصادفتِ ارتياحه، ودفعتْهُ عاطفتُه الصادقة لأن يمدح الرسول الذى يهيم بحبه كما مدحَه البوصيرى من البحر والقافية! أتكونُ هذه المعارضة الصادقة فى اتجاهها، الخالصة المخلصة لموضوعها، بعيدةً عن الشعر؟ من يقول هذا؟

قال الأستاذ الجندى: أنت انتصرت باختيارك، قصيدة البردة بالذات، فماذا تقول يا أسمر؟ وكانَ السامعون قد تحلّقوا وملئُوا فراغًا كبيرًا حتى صار المجلس كأنه ندوة، فرأيتُ الأستاذ الأسمر ينهض واقفًا ليقول ما ملخّصه:

الحق أنها فرصةٌ طيبة أتحدّث فيها عن شعر شوقى، لقد كتبت المقال الذى أشار إليه زميلكم هذا، وأنا طالبٌ بالقسم العالى بالأزهر، وكانتْ مصر تحتفل بإمارة الشعر لشوقى حينئذ، إذ حَضر من شعراء البلاء العربيّة من يبايعونه مع نُخبةٍ من شعراء مصر، وكنت صديقًا لفريق آخر من الشعراء مثل الهراوى والقاياتى والههياوى والكاشف، وقد أجمعُوا على أن إمارة الشعر عبثٌ لايليق، فلكلِ شاعر مكانتُه وجوّه واتجاهه، ولايزيدُ من مكانة شوقى أن يُبايعه بعضُ الشعراء فى حفل، ثم علمتُ أن مجلّة السياسة الأسبوعية، وكنت موظّفًا بها، ستخصّ شوقيا بعددٍ خاص، فرأيتُ أن أهاجمه بمقالٍ يرصد مَالَه وما عليه، وممّا عليه ما قلته عن معارَضاته، وما قلتُه من ضعفه فى النّسيب والغزل وشعرِ الفلسفة الفكرية، وأشكر الطالب الذى فتح باب القول عن شوقى لأتحدث لكم عن ظروف المقال.

ثم قال الأستاذ لأسمر: وسأطرفكم بقصة مشابهة، فبعدَ موت شوقى بايع الدكتور طه حسين الأستاذ عباس محمود العقاد بإمارة الشعر، ولم نطق صبْرًا

على ذلك، فرددْنا على المبايعة بطريقة فكاهية، إذ عمدنا إلى نَسَّاخ بدار الكتب يُسمّى «البرنس» وكان يَقول الشعر المكسور ولا يدْرى أنه مكسور، فاقترحنا أن نُبايعه بالإمارة ردا على طه والعقاد! وأقمنا حفلا أُنشدت فيه قصائد للهراوى والقاياتى والكاشف وحسين شفيق المصرى وكامل كيلانى، ونشرت القصائد فى الصحف!

وجلسَ الأستاذ مع زملائه، فامتدت السهرة بنا إلى منتصف الليل، وقال لىَ الأسمر: أنا أعمل بالمكتبة الأزهرية، وهى فى مقدمة الجامع الأزهر، وأشتاقُ الى أن أراك كثيرًا، فإذا زرتَ الأزهر فلاتنسَ أن ترانى، وكانت مجاملةً طيبة من الشاعر الكبير، شكرته عليها، وعزمت على أن أوطّد صلتى الأدبيّة به.

فى القاهرة:

كان عملُ الأستاذ الأسمر بمكتبة الأزهر مُشجعا لى على لقائه فى فترات كثيرة، وقد عودنى أن يسألنى: هل قرأت قصيدةَ كذا ممّا نشره حديثًا، فيحملنى ذلك على تتبّع آثاره، وقد قالَ لى ذات يوم: إنه يحرص على سؤالى مضطرآ، لأن الأدباء الكبار يقرءُون ولايتحدثون بخير أو شر، حتى أكثر أصدقائه يقابلونه، وقد نشر بالأهرام قصيدةً بارزة فى الصفحة الأولى، فلايتحدّثون عنها بشىء، وكأنه ينشر شعره فى جزيرة (واق الواق) وهذا مما يجعلُه يسىء الظن بشعره قبل أن يُسيئه بنيات أصدقائه، وتصادف بعد أن صرَّح لى بذلك أنْ نشرَ قصيدة ممتازة فى رثاء أحمد حسنين، وكان الرجلَ الأوّل فى القصر الملكى حينئذ، فسارعتُ إلى قراءة القصيدة، وأدْهشنى منها أنّه وفق إلى تصويرٍ شعرى رائع لمصرع الفقيد الكبير، حيثُ اصطدمت عَرَبَتُهُ بأخرى أمام جسر إسماعيل، وقد وقفت الأسودُ الحجريّة على واجهة الجسر، وعلَى بضعة أمتار نهض تمثال سعد زغلول مُشيرًا بيده إلى الفضاء! هذا الموقع المعروفُ كانَ مجال تصويرٍ شعريٍ اهتدتْ إليه قريحةُ الأسمر الوقّادة حين قال:

على جسر إسماعيل والأسْد فوقه هَوى أسدٌ بين الأسود الضراغمِ

ضراغم كادتْ هيْبة الحزن تنحنى لضيغمٍ غاب ما انحنى للعظائم
لهنّ حواليه وجوهٌ عوابس من الحزن أغنتْ عن زئير الضياغم
كأنى بسعْدٍ لم يمدّ ذراعه هنالك إلاّ خوف هذا التصادم

وقد حملنى الإعجاب بهذا التصوير على المبادرة بزيارته، وكنتُ حفظت الأبيات فأعدتُها على سمعه، فابتهج مسرورًا، وحدثنى أن الأستاذ أنطون الجميّل أُعجب بهذه الأبيات وعدَّها وثبةً شعرية.

ومن ذكرياتى الأدبّية مع هذا الشاعر الأنيس، أنى قرأتُ نقدا قاسيًا لقصيدة الأسمر فى رثاء النقراشى، حيث زعم الأديب الأستاذ عباس خضر أن الأسمرَ سطا فى قصيدته على شبيهةٍ لها قالها الأستاذ أحمد الزين منذ سنوات، إذ قال الأسمر فى مطلع قصيدته:

أفى كلّ يوم دمعةٌ خلف غائب وفى كلّ يوم لوعة بعد غارب
رِجال كأمثال النجوم فثاقبٌ مضى وهو لمّاح على إثر ثاقب
لأوشك دمعى أن تجفّ شئونه على كلّ ماضٍ ليس يومًا بآيب
إذا ما انتهينْا من رثاءٍ لذاهب بدأنا رثاءً بعد ذاك لذاهب
ثُريّا رجالات تهاوتْ نجومها وكانت على الوادى ثريا الكواكب

وكان الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الزين قد قال فى مطلع قصيدة نظمها فى ذكرى حافظ:

أفى كل حينٍ وقفة إثر ذاهب وصوبُ دم أقضى به حق صاحب
أودّع صحبى واحدًا بعد واحد فأفقد جنبى جانبًا بعد جانب
تساقط نفسى كل يوم فبعضها بجوف الثرى والبعضُ رهن النوائب

فيادهرُ دعْ لى من فؤادى بقية   لوصلِ ودود، أو تذكر غائب
ودعْ لى من ماءِ الجفونِ صبابة   أجيبُ بها فى البين صيحةَ ناعب

وقد قرأت النّصيْن، ورجعتُ إلى القصيدتين، فلم أجد سطوًا، ولا ما يُشبه السطو، لأن اتحادَّ البحر والقافية، لايدلّ على أدْنى اتهام، أمّا حزن الشاعر على توالى أعزائه راحلين غير منتظرين، فشعورٌ طبيعى يشترك فيه الناس جميعًا، وهو خاطرٌ متعارَف لدى كلّ من يفجعه الدهر بأحبائه، وأىّ الناس لايُفجع؟ على أنّ أوجَه الاختلاف فى المعانى تماثلُ أوجه الاتفاق التى تدلّ على اشتراك العاطفة، لا على أن شاعرًا نهب قول شاعر! فيم السطو إذن؟

الحقّ أنى ماكدت أقرأ هذا الاتهام بعنوانه الحادّ (الأسمر يسطو على شعر الزين) حتى كتبتُ ردا مقنعًا، أكشفُ فيه عن دواعى التماثل فى القصيدتين، وأبسطُ ما قاله بعض النقاد فى توارد الخواطر، وكيف نحكم بالسرقة الشعرية إذا كانت وليدة عاطفةٍ خاصة، لا عاطفة مشتركة، ولم أشأ أن أنْشره حتى أقرأه على الأستاذ الأسمر، فاتّجهتُ إلى مكتبه، فقيل إنه سيحضرُ بعد يومين، وانتظرتُ حتى لقيتُه، وأسمعته ما كتبتُ، فقال: إنه أرسلَ ردا إلى مجلة الرسالة يحمل هذه المعانى، ولكنّه يفضّل أن يَسحب الردّ، لينشر ردّى، فهو أمام القراء تصويبٌ وتصحيح، أما ردُّه فقد يعتبر دفاعًا إذ يتحدثُ عن نفسه، ثم اتّصل بالأستاذ الزيات تليفونيا ليقول له: إنّ ردا جديدًا سيأتيه الساعة يحلّ محل ردّه، ولكنّ صاحب الرسالة قال: لقد طُبعت الصفحات الأولى من المجلة وبها ردُّ الأستاذ الأسمر فلا محيص، عند ذلك أخذَ الأستاذ مقالى ووعَدَ بنشره فى صحيفة أدبيّة، ولكنى لا أدرى إلى اليوم مصيره، حيثُ لم أقرأه، ولم أشأ أن أسأل عنه رجلاً يهتم به أكثر من اهتمامى.

ديوان الأسمر:

أصدرَ الأستاذ الأسمر ديوانه الحافل فى أكثر من سبعمائه صفحة، وقد قابلنى الشيخ إبراهيم خضر الموظف بمكتبة الأزهر، فقال لى، إنّ الأسمر قد أهدى إليك

نسخةً أودعها المكتبة، مع عشرات من النسخ لأصدقائه، إذ أن نفقات البريد لهذا الديوان الضخم سترهقه إذا أرسله به، وكنُت قرأتُ الديوان على عَجل، فرأيتُه يجمع كلّ ما قال الأسمر، وفيه أشعار الطور الأول من حياته الشعرية. وهى بالنظم أشبه، كما أنّ به قصائد قيلتْ فى مناسبات طارئة، دفعت الشاعر إلى المجاملة بدون عمق فى الإحساس، أو انفعالٍ بما ينظم، فجاءتْ أشبه بَما يقول المبتدئون، فذهبتُ إلى المكتبة لأجد الأستاذ يبتسم فى ترحيب، ثم يحملُ الديوان ويقول هذه هديتك، فشكرتُه، وبانَ على وجهى أنّى أريد أن أتكلّم، فقال: هيَّا، ماذا لديك؟ قلت فى تُؤَدَة: لقد قرأتُ كثيراً من شعر الديوان، وكنتُ أوثر أن تختار الروائع وهى كثيرة كثيرة! فرجعَ إلى الوراء، ونظر إلىَّ قائلا: لقد قامَ بطبعه صديقٌ أريحىّ، وطلب كلّ مالدىّ! وذكر اسم الصديق وهو «عيسوى زايد باشا» من كبار الوجهاء! فسكتُّ حائرًا، وانطلَق الأسمر يقول: إن الشاعر عادةً يحبّ جميع شعره مع خبْرته بمواضع الضّعْف به، كالوالد يحبّ أبناءه جميعًا، وفيهم الخاملِ والنشيط، والمحسن والمسىء، ثم إنّى أحارُ دائماً فى تقدير شعرى، فقد أحبُّ قصيدةً أراها ممتازة، ولكنّ أصدقائى يهبطون بها، كما أستضعفُ قصيدة أخرى فأجُد الإعجاب بها على الألسنة، فماذا أصنعُ إذا اخترت، فأهملت ما يحب القارئ، وذكرتُ ما أحبّ أنا ويكون موضع نقد لدى سواى!! وكلامُ الأستاذ الأسمر يحتاج إلى تعقيب ينطق بأن الجودة الرائعة لاخلاف عليها عند الأُصَلاء من النقّاد، ولكنّى آثرتُ أن أنتقل إلى الحديث العام دون أن أتسع فأُسىء.

لقد كان الأسمر شاعرًا موهوبًا، ومسامرًا أنيسًا، وصديقًا ذا بشاشة وترحيب.

* * *

الشاعر محمود غنيم

كتَبَ الأديب المهجرى الأستاذ توفيق ضغون مقالاً نقديا عن الشاعر محمود غنيم تحت عنوان (خليفة حافظ) ذَهَبَ فيه إلى أن الشاعر بديباجته المشرقة، ومعانيه السهلة، وخواطره الصادقة، وإحساسه الرقيق يُعدّا متداداً لشاعر النيل، وقد صَدَقَ الناقد الأديب، فإن محمود غنيم أشبه الشعراء بحافظ، وإذا كان شاعر النيل يُسيطر على الاحتفالات الأدبيّة بمزاياه الفنيّة القريبة إلى ذوق الجمهور، فيقابلونه بالتصفيق، فقد كان خليفتُه من طرازه فى هذا المضمار، فقد يجتمع فى الحفل شعراء أقوى منه تحليقًا، وأدقّ تصويرًا، وأعمق غوصًا، ولكنهّم عند الاستماع لايبلغون مبلغه! إنما يُحوزون تقديرهم الراجح عند الدارس المتأمل، والقارئ الفاحص، وما أقلّ هؤلاء، على أنهم ميزان الترجيح.

ومما أذكرُه عن غنيم، أننى رأيتُه ذات ليلة يُقدّم للأستاذ الزيات قصيدةً تحت عنوان (وحى الشرق) لتُنشر فى أحد الأعداد المُمتازة الخاصة بمطلع العام الهجرى، وكانت القصيدة لا تتجاوزُ عشرين بيتًا، فسمعتُ الأستاذ الزيات يقول له: ما هذا؟ ليست عادتُك مع العدد الممتاز؟ فقال الأستاذ غنيم: معذرة، فهكذا جاءت وليس لى أن أفتعل.

وحين خَرَجنا معًا إلى الفضاء الرحب، وجدتُ الأستاذ غنيم، يضرب كفا بكف، ويقولُ: عجيبة والله! هل الشعر بالقنطار والطّن، حتى أملأ صفحتين من الرسالة! قلتُ فى هدوء: ياسيدى المناسبة الدينيّة جليلة، وقد تعودّ القراء منك فى الأعداد السابقة أن تبدع وتمتع، ولولا حرصُ الزيات على أدبك، ما طلب منك

أولا أن تُشاركَ فى العدد الممتاز، وما استقلّ ما أتيت به ثانيًا؟ فقال غنيم: القصيدةُ تحت عنوان (وحى الشرق) وقد ابتدأتها بقولى:

مَهْدَ الهدى ومثابة الأقمار نور البصائر أنت والأبصار
فيك الشرائع والشموس تلاقتا فتلاقت الأنوار بالأنوار

ومضيتُ أتحدث عن الوحى السماوى فى بلاد المشرق، وعن أثر الحضارة الأوربية فى إشعال الحروب وتدمير الأجساد، وعن البيان الشرقى فى لغاته الجميلة وعن أخلاق الشرقيين وأطماع الغربيين، فماذا يريدُ الزيات أكثر من ذلك، قلُت: إن المعانى كثيرة وتتّسعُ لمائة بيت! فقال: غدًا ستقرؤها وتحكم، وتنقّل الحديث إلى شعاب أخرى، حيث جلسنا فى مقهى بباب الخلق، ولكنّ الشاعر لم يثبت عند رأيه، فقال لى فى ختام الجلسة: الزيات له حق، ستظهرُ قصائد العدد شامخةً دون هذه المسكِينة! الفُرصة ستأتى فى العام القادم بإذن الله.

فى امتحان الترقية:

حين عُيِّنت مدرسًا أول للّغة العربيّة بدار المعلمات بالفيوم، كان من النظام المتبع فى وزارة التربية والتعليم أن تُقام دورةٌ تدريبيّة للمدرسين الأوائل تمتد أسبوعين، تُلقى فيهما المحاضرات صباحًا، وتدور المناقشات الشفوية مساءً، وكانَ الأستاذ محمود غنيم مع أحدِ أساتذة الجامعة يُديران حلقة النقاش فى مسائل الأدب والتربية والاجتماع، فأخذ الشاعر يرعانى بعطفه وتشجيعه، فلايُبدى رأيًا إلا وسألنى ما رأيك؟ ثم انقلب الأمر فجأةً لأمر يسير، فقد كان لنَا زميل هو الأستاذ الغزالى حرب تعودَ على الجلوس معى فى الفترة الهادئة بين الاجتماعيْن فكنا نتناولُ الغداء معًا كما تيسّر، ونصلّى الظهر والعصر، ونجلس فى المقهى حتى تحين المناقشة المسائية، وفى بعض الجلسات جرَى على لسانى هذا البيت مخاطبًا الغزالى:

عهدتُك بُحتْريا لا فقيهًا فكيف دعاك والدك الغزالى

وما كادتْ حلَقة النقاش تبدأ، حتى قام الغزالى بدون استئذان وقال: شرّفنى أخى الأستاذ رجب فقال هذا البيت ـ وأنشد ماقلت ـ وكانت مفاجأةً لى وللزملاء، وللأستاذ غنيم بنوع خاص، إذ كانَ على علاقة متوتّرة بالغزالى لأنّه يُصاول فى النقاش وكأنه يصارع، فقالَ غنيم: البيتُ ردىء وكذب، وماكدتُ أخرج من الحلقة بعد الانتهاء، حتى استدعانى الشاعر الكبير، وصاح بى: ما هذا الهراء يا ولد؟ أنتَ الذى لم تمدح طه حسين والعقاد وأحمد أمين تمدح الغزالى وتجعله بحتريا؟ الشعر كرامة، الشعر كرامة! ولم أجد غير السكوت إذ ماذا أقول؟

فى الفيوم:

حضر الأستاذ محمود غنيم للتفتيش فى إقليم الفيوم لمدة أسبوع، وفى أولِ يومٍ شرّف فيه المدينة اتّصلَ بى تليفونيا، وقال إنه يودّ مساءً هادئا بدون أن نجتمع بالمقهى مع الزملاء كعادة الكبار من المفتشين، ويرغبُ أن أزوره فى الفندق مساءً مع ديوان شعرىّ يكل إلىّ اختياره، لنقضى فى قراءته أمسيةً أدبّية هادئة، فأخذت أفكر فيما أختار، وراقنى أن أصحبَ الجزء الثانى من ديوان الشاعر الكبير الأستاذ خليل مطران لنقرأ معًا قصيدته الرائعه (عصفورة مغتربة) وهى من عيون الشعر المعاصر، وما أظنُّ أحدًا من زملاء الشاعر الكبير قد وُفق إلى معانيها الرائعة ذات التصوير المبتكر البديع، وشعرُ مطران يقرأ على مهل، وقل أن يُعطى مضمونه الدقيق إذا أُنشد فى حفل، فلما واجهتُ الأستاذ بديوان مطران، لم يبدُ على وجهه الارتياح، ثم قالَ: لم تجد غير هذا الديوان، قلتُ سأُسمعك نادرةً من نوادر الشعر العربى، فقال: وهلْ لدى مطران هذه النادرة، قلت: ستسمع، ثم أخذت أقرأ القصيدة ومطلعها:

يا منَ شكت ألمى معى ... طيبته فى مسمعى

ففاجأنى غنيم بقوله: «طيبته» كلمة عاميّة، قلت: أرجو أن ندّخر التعليق حتى أتّم المعلقة، ومضيت فى القراءة، فأشرق وجه الشاعر وجعل يَستعيدنى، بحيث قضينا ساعتين فى قراءة القصيدة واستعادتها والتعليق عليها، ثم قال: مطران

مظلوم يارجب! لأننّا نكتفى بقراءة مطالع قصائده، ولو عكفنا على نوادره هذه، لخرجنا بصيد ثمين!

ثم قال الشاعر الكبير: أنت تذكرنى الآن بالأستاذ أنطوان الجميّل رئيس تحرير الأهرام، فقد كان ذا ذوق أدبى رفيع، وكان يحتفل بقصائدى وينشرها بالأهرام فى مكان بارز، وفى ليلة من لياليه الأدبية بالأهرام، فاجأنى بهذا السؤال: لماذا لا تقرأ شعر مطران؟ قلتُ فى أدب: أنا أقرؤه كثيرًا، قال: ولكنك تأثرت بشوقى وحافظ والبارودى ولم تتأثرْ به.. قلت: هذا واضح، لأن لكل شاعر ذوقه، قال: إن قراءة مطران ستفتحُ لكَ آفاقًا جديدة، فاهتمّ به، قلت: هذه نصيحة غالية، وسأعمل بها، ولكنّى لم أرَ فى نفسى ميْلا إلى قراءة هذا الشاعر، وهأنْتَذَا ستدفعنى إليه من جديد..

الانتقال إلى القاهرة:

ثم قالَ الأستاذ غنيم، أنا أعترف للأستاذ أنطوان الجميّل بفضلٍ كبير لا أنساه، فقد مكثت مدرسا بمدرسة كوم حمادة الابتدائية تسع سنوات، وكم سعيتُ للنقل بدون جدوى، وأرسلتُ القصائد تلو القصائد بالبلاغ والرسالة والأهرام شاكيًا غربتى فى منفى بعيدٍ عن الجو الثقافى فما استمع إلىّ أحد، وكان مما قلت:

أيذوىِ شبابى بين جدران قريةٍ ... يبابٍ كأنّ الصمت فيها مخيمُ

أكادُ من الصمت الذى هو شاملى ... إذا حُسب الأحياء لم أكُ مِنْهُمُو

وعاشرتُ أهليها سنين وإننى ... غريب بإحساسى وروحى عنهمو

يقولون خضراء المرابع نضرةٌ ... فقلت هبوها لست شاة تسوم

على رسلكم إنى أقيمُ بقفرة ... يجوزُ على الأحياء فيها الترحم

حياةٌ كسفح الماء والماء راكد ... فليسَ بها شىء يسّر ويؤلم

وخاطبت الأساتذة عبد القادر حمزة، وأحمد حسن الزيات، وعلى الجارم، فلم أجدْ جوابًا، ثم تجرأت فخاطبت الأستاذ أنطوان الجميل، فكلّم الأستاذ الجارم المفتش الأول بالوزارة فاستجاب فوراً.

قلت: لقد ذكرتَ أنك رجوت الجارم فلم يستجب لك، وهو يعلم أنك شاعر موهوب، فضحك غنيم ضحكة ساخرة، وقال: سامحَ اللّه الجارم، لقد دخلَ أحد الفصول للتفتيش فوجَدَ بأيدى الطلاب الجزء الأول من كتاب المطالعة المختارة، وهمْ يقرءون قصيدةً لى أعدّها المدرّس من الكتاب المقرر عن (الكلب هول) وهو الكلب البوليسى الذى يكتشف الجناة وفيها أقول:

كلبٌ ينم عن الجناة تمشى العدالة فى خُطاه
إن قال أرهفت النيا بة سمعها وصغا القضاه
خافتهُ دون الله أفئد ةُ الجبابرة الطغاة
عجبًا يخاف الكلبَ ناس لا يخافون الإله

فتبرمّ الجارم، وقال للمدرس: أينَ شعر شوقى وحافظ والبارودى ومن فى طبقتهم، وأحسّ المدرس كأنه أخطأ فأخذ يعتذر بأنّ الموضوع من الكتاب المقرّر ولا ذنب له! فعجلت أقول: لقد ذكر الأستاذ الدكتور زكى مبارك فى كتاب ليلى المريضة فى العراق، أن مدرسى اللّغة العربيّة بالمدارس ينافقون الجارم فيختارون قصائده، ويصرون على أن يحفظها الطلاب، لينشدوها أمامه إذا دخل للتفتيش، فقال غنيم: هذا صحيح، ولكنى لم أفعل ذلك إطلاقًا. واسترسل الشاعر يقول:

حين مات الجارم اتصل بى الأستاذ محمد على مصطفى وقال إن نادى دار العلوم سيقيم حفلة تأبينية للشاعر الكبير، ولابدّ أن أعدّ قصيدة رنّانة، فأسرعتُ بالاستجابة، ونظمت قصيدة طويلة كلها حسرة على الشاعر العظيم، وكان مطلعها:

عرش ينوح أسى على سلطانه قد غاب كسرى الشعر عن إيوانه

طوت المنون من الفصَاحة دولة ما شادَها هارون فى بغدانه
فى ذمة الفن المقدس عازف لقى الحِمَامَ على صدى ألحانه،

وقد قُوبلت بالإعجاب، لأنى لم أكن أرثى الجارم قدر ما كنتُ أشيد بمدرسته الشعرية التى يرأسها شوقى، والتى تعرضت لهجوم العقاد ومن حَذَا حذوه، وقد لحظ ذلكَ أساتذة الأدب ممّن شهدوا الحفل، فأكثروا من إطراء القصيدة، وفهموا ما أهدف إليه من المعانى، وامتد الحديث بنا إلى وقت طويل..

عن العقاد:

تعددتْ أحاديثى مع الأستاذ غنيم فى مناسبات كثيرة، إذ كانَ من دَيْدَنه أن يكون نجم المجلس، يتحدث وكلنا نستمع، وكان له من الشعر الفكاهى ما يسمع ولا يُدَوَّن، ولكنّ الألسنة تتناقله فيحفظه الناس أكثر مما يحفظون الشعر المسطور، لأنّ الهجاء يتعلق بشخصيات مرموقة، وكلّ ذى نعمة محسود، على أن لكل عظيم هناته التى يجوّفها غنيم فيبدع غاية الإبداع.

وكانَ فى مجلسه الأدبى لايبدى ارتياحًا لآراء العقاد النقديّة، وبخاصّة فيما يقوله عن مدرسة شوقى، ويقول إنه ردّ على العقاد وهو طالبٌ بدار العلوم ردا مقنعًا، ولكنّ العقاد كعادته قد تولاه، بالنقض ونشرَ جانبًا من رد الشاعر فى كتاب (ساعات بين الكتب) مع ماكتبه من الردّ المسهب، والخلاف كما أرى خلافٌ بين مدرستيْن قبل أن يكون خلافًا بين شوقى والعقاد، وإن كنتُ أقدر للأستاذ غنيم وجهة نظره الخاصة بحقيقة الشعر، كما أقدّر للعقاد سعةَ أُفقه، وبُعْد غَوْصه، ولو شاء الله لجعل الناس أُمَةً واحدة!

ولا أنسى ذات مساء كنت بميدان العتبة بالقاهرة، فلمحتُ الأستاذ غنيم يجلس مع رفاقه، وعلى وجهه من الابتسام والبهجة مأُينبئ عن نشوة طافرة، فحينَ وقعتْ عينه علىَّ، قال: هيّا يارجب! جاءت معجزة كبرى، لقد مَدَحَنى العقاد بقصيدة، هى معى وبخطّه! والحقّ أنى فُوجئت، فأنا أعرف أن العقاد مُتَشَامِخٌ، ولا يُجاملُ غير أقرانه الكبار، ولكنَّ الأستاذ غنيم، اندفع يقول: لقد زُرْتُ أسوانَ فى الشهر

الماضى للتفتيش، وعلمتُ أن الأستاذ العقاد يجتمعُ بزواره فى منزله هناك، فوجدتُ الشعر يسرع إلى لسانى، وذهبتُ لأنشده هذه الأبيات:

أسوانُ والعقادُ فيها كعبةٌ | سمحَ الزمان فِصرتُ من حجاجها
قد كنتُ أبصرها برأسٍ حاسر | واليوم قد أبصرتُها فى تاجها
قولوا لرواد الكواكب إننى | زُرْت النجوم الزُّهْرَ فى أبراجها
الضّاديا عباس أنتَ سراجها | وأنا شعاعٌ من وميض سراجها

فابتسم العقاد، وأجال فكره، فرّد علّى بقوله:

أسوانُ فى دين السماحة كعبة | بحداتها، والغر من حجاجها
أقبلْ إليها يا غنيم وزِدْ بما | حييتها بُرجا إلى أبراجها
والشعرُ من وحى الغنيم غنيمة | أغنْى الغشاةَ مزوّدٌ من حاجها
أنت الوميضُ من السراج إذا ارتقتْ | ومضاتُه العليا إلى معراجها

قلت هذا رائع، فصاح غنيم، أصبحتُ أحب العقاد، لأنّه السيف الذى يجتث رقاب أصحاب الشعر الحرّ، ولن يثبتوا أمامه بحال، ومات العقاد فرثاه غنيم، ثم ودع غنيم فبكيناه...

* * *